



أ/ عباس أبو تيم شريفة

ولا يزال الكلام موصولاً مع الأخوة عن أزمات الثورة السورية واليوم سيكون حديثنا عن أزمة القيم الأخلاقية. لم يمتدح البيان الرباني رسولنا الكريم بالنبوة وهونبي ولا بالرسالة وهو رسول ولا بالعلم وهو عالم ولا بالنسبة وهو صاحب نسب وإنما امتدحه بما كان يحمل من أخلاق وقيم قال تعالى (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ) ولم يحدثنا القرآن الكريم عن أمم بادت بسبب نقص الموارد ولا الزلازل والحروب وإنما يحدثنا عن الأمم التي بادت لم تأت من قبل أخلاقها، وإذا أصيب القوم في أخلاقهم فأقام عليهم مأتماً وعوايلاً.

ربما لا يدرك الكثير منا أن أس الصراعات العالمية ومنها في ثورتنا السورية هي صراع بين القيم بين من يريد فرض قيم العلمانية والليبرالية والحداثة ذات المرجعية العقلية المنحازة ضد ديننا والتي تهدم الاسوار الأخلاقية أمام الرأسمالية العالمية وبين قيمتنا الاسلامية التي تحمل في مكونها شكلاً لنظام عالمي مستمد من الوحي.

إن المرحلة تقضي منا تجاوز عملية التثقيف السياسي إلى التربية السياسية بمعنى تحويل الكم المعرفي السياسي إلى قيم سياسية أخلاقية تصوب السلوك. فقد عانت ثورتنا من نضوب القيم السياسية بشكل ملحوظ (الشورى / أو العدل / أو أداء الأمانة)

في الأزمات والنكبات التي يتعرض لها المجتمع تحمل القاعدة الأخلاقية كل ارتدادات الأزمة ويسمم التكافل الاجتماعي في تطبيق وتفریغ شحنة هذه النكبات لذلك كان هناك تلازم بين متانة القاعدة الأخلاقية لأمة وقدرتها على الصمود والمواجهة

والتحدي.

إن الثورة الكاملة هي الثورة التي تنجذب على ثلاثة مستويات في التغيير الاجتماعي:

إنجاز الاستحقاق / العسكري / السياسي / الأخلاقي. / وإن كانت ثورة بتراثها وستظل هذه الثورة تحمل بنور فنائها مهما أنجذب من انتصار عسكري أو مكاسب سياسية إذا ما كان أبناءها ينحدرون في قيمهم ويتوهشون في أخلاقهم نحو الحضيض. إن ما يفسر تداعي وانهيار المشاريع السياسية والعسكرية بين مكونات الثورة في كل مرة هو غياب القاعدة الأخلاقية الصلبة كأساس للبناء. وغيابها تحول المشاريع الجامحة إلى ميدان لصراع النفوس.

الثورة في حقيقتها هي ثورة المجتمع على نفسه على قيمة التي كانت تحمله على الصمت عن بغي ذلك الطاغية في صورة ذلك الطاغية الذي توجه له الحراب ثورة على الذات لتطهيرها من لوثات الطغيان. كان على الدعاة والمصلحين أن يعززوا ربط ثورتنا بقيمة أخلاقية محورية تكون مصدراً ملهمًا وموجهاً عاصماً لبوصلتها وقاعدة لالقاء بين أبنائها.

فلكل ثورة قيمة محورية تكون نيراس الإلهام لأبنائها، فالثورة الفرنسية رفعت شعار الحرية والثورة الشيوعية رفعة شعار المساواة ولتكن ثورتنا ثورة العدل.

ظواهر الأمراض الأخلاقية تكاثرت كالثأليل في ثورتنا فقد رأينا كيف تنقض العهود والمواثيق وكيف توظف الفتوى لخدمة الجماعة وكيف يستباح المال والدم المعصوم وكيف يتهرب من الحكم الشرعي وظاهرة الامير الكذاب والشرعى الموظف عند الامير وكله باسم الشرع.

مع بداية الثورة السورية المباركة كان هناك انفتاح سائل على موقع التواصل الاجتماعي وقد رأينا المستوى الأخلاقي المتردي في المنشير وفي التعليقات والردود بين أبناء الثورة الواحدة التي يندى لها الجبين والبعض كان يستعين بالأسماء المستعارة ليعطي لنفسه مزيداً من الحرية في السب والشتائم.

لا أقول ولا أدعى أن مساحة الحرية التي أعطتها الثورة لأبنائها هي من أسهمت في هذا التحلل ولكن أقول إن الثورة ألغت القيود فظهرت بعض النفوس على حقيقتها عندما غاب الرقيب ولم تبق إلا رقابة الله تعالى من الطبيعي أن تظهر بعض العلل النفسية والأمراض الخلقدية في شعب قضى أربع عقود من الزمن يرتشف من معين تربية الطغاة وهذا الأمر نفسه حصل معبني إسرائيل لما خرجوا من قيد فرعون لذلك ليس من الإنفاق حصر الأزمة الأخلاقية في الثوار والفصائل بل هي مشكلة إجتماعية عامة تحتاج إلى وضع استراتيجية إصلاحية عامة.

إن أصحاب القيم الملتوية والذين يبيعون قيمهم في سبيل المصالح الآنية ربما يحققون مكاسب مراحلية ولكنهم لا محالة ساقطون سقوطاً لا قيام بعده.

وإن المتمسكون بقيمهم أمام مغريات المنافع العاجلة ربما يخسرون مرحلياً ولكنهم هم من يتذرى ذرى المعالي والسؤدد. يحدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أزمة الأمة في آخر الزمان التي توصلها إلى الغنائية فينفي أن تكون من قلة العدد والعدة وينبهنا إلى الامر الخطير (وليقذفن في قلوبكم الوهن قالوا وما الوهن يا رسول الله قال حب الدنيا وكراهية الموت. فكان جذر المعضلة كما بينها الصادق لمصداقي والاحتاط القيمي الذي يصيب الأمة وعليه تتولد جميع العلل التبعية).

الحكمة النبوية في تشبيه الأمة بغناء السيل في زمن التردي الأخلاقي لوجه من الشبه:

1- غباء السيل لا وزن له يطفو على الماء والأمة اليوم لا وزن لها بين الأمم.

2- غباء السيل فقاعات لا مضمون لها وكذلك الأمة اليوم فقاعات لا مضمون لها.

3- غثاء السيل لا اتجاه ولا هدف له فهو يمشي مع السيل وكذلك الأمة أضاعت بوصلة الإتجاه والهدف.

4- غثاء السيل مجموعة غير متجانسة وغير مترابطة من الأعواد والأوساخ والأمة غير متجانسة في فكرها وغير مترابطة في جماعاتها.

لقد تطورت منظومة هدم القيم من الظاهرات الاجتماعية العفوية إلى حالة العمل المنظم فالظلم والطغيان بناء هرمي يتشكل

من:

1- رأس الهرم فرعون.

2- البطانة الفاسدة من النخبة الاقتصادية (قارون) والنخبة السياسية (هامان)

3- القوة القمعية من الجنود والجهاز الأمني (وجنودهما)

4- القوة الإعلامية والدعائية المتمثلة بالسحرة.

5- وقادة الهرم الشعب المستخف المقهور الخانع.

لا يزال هناك من يتعامل بإذدواجية مع القيم والمبادئ فهو مثلاً يطالب من يسكنون مناطق النظام بالهجرة كالمهاجرين ولكن لا يطلب من نفسه أن يكون ذلك الأننصاري الذي يقاسم من هاجر إليه المال والمسكن والفراش بل ربما تحول إلى تاجر حرب يعتاش من رفع إيجار البيوت أو من احتكار السلاح والدواء والطعام

هناك أزمة في النفسيات العربية التي تحصر القيم بجانب ما يتعلق بالشرف والمرأة والغيرة إلى درجة التعصب بينما لا يرى أساساً من التحلل من كثير من القيم كالاعهود والمواثيق والشورى واحترام العمل وإتقان الصناعة بل ربما يظنها من نافلة القيم.

سيبقى عامل الجذب الأخلاقي لعاطفة الجماهير نحو مشروعك أقوى تأثيراً بكثير من الجذب المنهجي والفكري بل ربما يسقط المشروع الفكري الصحيح بسبب سوء أخلاق من يحمله، قال تعالى (ولو كنت فظاً غليظاً لانقضوا من حولك) آل عمران.

من المعلوم أن القيم الأخلاقية تجذب النفوس كالمحناطيس لأنها تنتمي لذات الفطرة ولا تفرض على الناس بالقوة وكل عملية فرض بالقوة قد تؤدي إلى نتائج عكسية فنحن اليوم نواجه موجة الإلحاد التي خلفتها موجة الغلو.

ظهر في ثورتنا نوع من الانحطاط الأخلاقي المتمثل في جحود تضحيه الآخرين والعمل على تسقيط الجماعات والأشخاص والمناهج لأجل الدعوة الحزبية والعصبية المنهجية فما بين أن تكون عند جماعة عالهم وابن عالهم إلى أن تكون جاهلهم وابن جاهلهم إلا أن تخالفهم في مسألة.

تبقى أدلة الساحة وفق المناهج الحزبية وتفريقها إلى جماعة وأحزاب واستغلال مصائب الشعب لنجعل من الثورة منبراً للدعوة الحزبية وكل ذلك بإسم الدين يبقى هو الإنهاك الأكبر في القيم.

رأينا في الثورة من أكل الدنيا بالدنيا وجعل من الثورة ثروة فتكرشت بطونهم وتغلظت رقابهم من أكل السحت ولكن يبقى من أكل الدنيا بالدين أشد جرماً من الأول.

كما لا أنسى في نهاية الحديث تلك الجريمة الأخلاقية التي تمثلت بخذلان من يطلب النصرة من إخوانه وهو يقاتل بما تبقى معه من سلاح تحت الحصار بينما هناك مناطق وادعة ناعمة بالهدن المذلة مع النظام لا تحرك نخوتها الدماء ولا صرخات المعذبين ولا بكاء الأطفال.

كما لا أنسى التعریج على ذلك القائد الذي انحط في قيمه فهو يستحسن الفرقة والتنازع ويبحث عن مكاسب شخصية وهو يرى المناطق تتسلق يوماً بعد يوم والحرصار الخانق يضيق يوماً بعد يوم ولم تحركه نخوتة ليأخذ قراره ليتنازل عن إمارة الوهم فهو لا يرغب أن يشعر بألم فطامها بعد أن رضع لبانها واعتاده.

إن الأزمات والإبتلاءات كمحك الذهب وهي أفضل الأجواء لترسيخ القيم الراقية وكشف القيم الدينية فيها تتمايز معاند البشر لذلك لا تحزنوا على ما أصابكم فإن التمحص قبل الإصطفاء سنة ربانية والأمم لا تتقدم إلا بعد أن تعركها الأزمات والإبتلاءات.

حساب الكاتب على تويتر

المصادر: